فى النقد الادبى

كتاب ابن الرومى

للأديب الكبير

السيد مصطفى صادق الرافعى

نشرنا فى الجزء الماضى (ديسمبر سنة ١٩٣١) القسم الاول من هذا النقد الصحيح، والذى تفضل به امام اللغة وعلم العربية السيد مصطفى صادق الرافعى، وننشر الآن القسم الثانى وهو بقية المقال شاكرين ... المحرر

يجىء فى كتاب العقاد باب يملأ ١٨٦ صفحة لا يستوفيها القارىء إلا بعون من الله، وكأن الله سلط على ابن الرومى طولا بطول ... وثرثرة بثرثرة .. وهذا الباب فى استخراج حياة ابن الرومى من شعره، وهو الذى بنى عليه الكتاب، ومع ذلك فهو أقبح عيوبه، إذ لا يؤرخ الشعر قائله، وخاصة إذا كان يمدح لينال، ويهجو لينال، ويحتال لينال، وليس عنده إلا المنالة، فمثل هذا الشاعر يكون أكثر كلامه بضاعة وصناعة، ولصناعة الكلام حكمها، فالشعر فيها منافسة بين القائمين بها والعائشين منها، لا ينظم أحدهم معنى إلا نافسه الآخر فى المجىء بمثله، وما أحسبك تحكم على المغنى بأنه متدله فى الحب لأنه يتغنى به، إذ كان لا يتغنى بالحب إلا ليطرب سامعيه، ولا يطربهم إلا للأجر والمنالة.

ثم الشعر مبالغات ومتناقضات، وبخاصة عند ابن الرومى، فطريقته التى اشتهر بها هى نقض المألوف والخلاف على الناس، لا من عقيدة ولا من رأى ولا فلسفة، بل صناعة جدل وبرهان لاظهار اقتداره على القول واتساعه فى مذاهبه حتى قال المعرى، وذكر ما يقوله البغداديون فى تشيعه واستدلالهم على ذلك بقصيدته الجيمية: ما أراه إلا على مذهب غيره من الشعراء، وهذه العبارة أوردها العقاد فى كتابه ولم يفهمها، فظن أن المعرى لم يطلع على شعر ابن الرومى !!! فخفيت عنه حقيقة مذهبه.. قلنا: ولكن المعرى — وهو قريب من عصر ابن الرومى — يعلم أنه من العبث استخراج حياة الانسان من شعره، وأن مذهب الشعراء أنهم يقولون مالا يفعلون، ويتقربون لكل إنسان من طريقه، لا من طريقهم، إنهم لا يذهبون بالشعر إلى دورهم أو إلى دور الكتب، بل إلى القصور والدواوين ونحوها، وهذا البحترى قالوا: إنه كان يكنى أبا عبادة، ولما دخل العراق تكنى أبا الحسن... ليتقرب بهذه الكنية إلى أهل النباهة والكتاب

من الشيعة ، فهذا معنى قول المعرى : ما أراه إلا على مذهب غيره من الشعراء .

ولم يفت العلماء أن ينبهوا على طريقة ابن الرومى وكذبه على الأشياء والحياة . فقال الجرجانى فى كتاب (الكنايات) بعد أن أورد شعره فى مدح الحسد : وابن الرومى فى قدرته على الكلام وتمكنه من التصرف فى شعره يصف الأشياء بغير صفتها ، ويحليها بغير حلاها ، فقال يمدح الموت وخالف الناس (١) :

قد قلت : إذ مدحوا الحياة وأسرفوا فى الموت ألف فضيلة لا تعرف

منها : أمان لقائه بلقائه وفراق كل معاند لا ينصف

هذا ابن الرومى يمدح الموت ويقول فيه ألف فضيلة ، مع أن العقاد يستدل بشعره على أنه كان يعبد الحياة . . . !

ويقول المرتضى فى كتابه (الشيب والشباب) بعد أبيات لابن الرومى فى الخضاب : وجدت ابن الرومى يتصرف فى هذا المعنى ويعكسه .. وفلسفة هذا الرجل فى شعره ، وتطلبه لطيف المعانى مع إعراض عن فصيح العبارة وغريبها ، وإن كانت مذمومة فى الأغلب الأكثر ، ربما أثارت دفينا (٢) .

وسر ابن الرومى كله — وهو ما لم يتنبه إليه أحد إلى الآن — أنه نقل الطريقة الكلامية إلى الشعر ، وكان رجلا متكلما ذا جدل وبيان ، وقد رأى أساس هذه الطريقة فى شعر أبى نواس وابن الضحاك وغيرهما ، وفى شعر علماء الكلام : كبشر بن المعتمر ، فوافقت منه هوى وطبيعة ، فقصدها وبنى عليها وتوسع فيها حتى تقررت له وعرف بها ، وتلك هى الطريقة التى تتقرر بها المذاهب الأدبية ، فابن أبى ربيعة بنى مذهبه على أبيات أعجبته من كلام امرىء القيس ، وأبو نواس بنى على الأعشى ، وأبو تمام بنى على مسلم ، وهكذا . وفى كل قصيدة من قصائد ابن الرومى ترى ملكة الشعر وملكة الجدل تتصارعان وتتجاذبان ، وهذا سر سفسفته ، وهو الذى يبعثه على استيفاء المعنى إلى آخره وإماتته حتى لا يترك فيه بقية ، كما أنه هو السبب الذى نهض عند الناس بمقاطيعه وسقط بقصائده حتى مات أكثر ديوانه ، وحتى كأنه لم يقل إلا أبياتاً ومقاطيع . وهذا الأديب الكبير القاضى الجرجانى يقول فى كتابه (الوساطة) : بعد (كثيراً) ينتحل تفضيل ابن الرومى ويغلو فى تقديمه ، ونحن نستقرى القصيدة من شعره ، وهى تناهز المائة أو تربى أو تضعف ، فلا نعثر فيها إلا بالبيت الذى يروق أو البيتين ، ثم قد نسلخ قصائد منه وهى واقفة تحت ظلها ، جارية على رسلها ، لا يحصل منها السامع إلا على عدد القوافى وانتظار الفراغ... (٣)

---

(١) لم يذكر العقاد فى كتابه هذا النص .

(٢) لم يذكر العقاد هذا النص فى كتابه أيضا مع أنه رأى عالم محقق دقيق يصح أن يؤخذ رأيه فى أسلوب ابن الرومى على أنه رأى عصره .

(٣) هذا النص مما فات العقاد أيضا ، فلم يذكره فى كتابه .

وابن الرومى نفسه كان يعرف أن طريقته هـذه مرذولة لا تقع بالموافقـة ممن يمدحهم ، فيقول فى شعره لممدوحه :

أول ما أسأل من حاجة أن يقرأ الشعر إلى آخره

أهى قصيدة ويلك ؟ أم هى ضريبة قراءة على الممدوح ....؟!

إن العقاد فى زعمه استخراج حياة ابن الرومى من شـعره ، وإغفاله كل ما مر بك، هو فى رأينا كالذى يزعم لك أن بائعة الدجاج المسكينة هى أكثر الناس أكلا للدجاج واستمتاعا بلحمه ، مستدلا على ذلك ، بكثرته عندها وقدرتها عليه أى وقت شاءت ، ويذهب عنه أن هذا الدجاج إن كان عند الناس لحماً يؤكل فهو عند هذه المسكينة مال يجمع .

وفات العقاد فى استخراجه أن يزعم أن ابن الرومى كان يبغض القمر . . . لقوله فى ذمه :

يا سارق الأنوار من شمس الضحى يا مشكلى طيب الكرى ومنغصى

كما فاته أن يستدل بهذا على أن ابن الرومى لم يكن يجد النوم فى الليالى المقمرة ... وهذا يدل على أن داره كانت متهدمة ، فاذا طلع القمر وقع فى مخدعه لا يستره شىء ، وبقى طول الليل فوق عينيه فلا ينام ، لأن أجفانه بالغة كل مبلغ من الضعف والاهتياج ...

أرأيت إلى أين تنتهى طريقة الاستدلال بالشعر على الحياة ؟ وانها تحكم على ابن الرومى بأنه جلف لا يدرك معنى الجمال فى القمر، فمن ثم ليست فيه طبيعة فنية ، ولا يصغى إلى سر الحياة ولا ولا .. إلى أن تنقض بهذا البيت وحده كل ما زعمه العقاد فاذا كتابه كتاب مزور.

ومن أغرب ما استخرجه المؤلف ما زعم أنه وصف لابن الرومى وكله تلفيق ، ومن أعجبه قوله: كان إذا مشى اختلج فى مشيته، ولاح للناظر كأنه يدور على نفسه، أو يغربل لاختلال أعصابه واضطراب أعضائه ، واستدل على ذلك بقوله :

إن لى مشية أغربل فيها آمناً أن أساقط الاسقاطا

قال: وهذه المشية معروفة تدل عليها حركة الغربلة، وتكثر فيمن بهم خلل فى العصب أو العضل.

قلنا : لم يفهم العقاد معنى « يغربل » فان مشية الغربلة كناية عن معنى آخر ، إذ رمى بعضهم ابن الرومى بالتخنث ، واستدل بمشيته تلك ـ وهى مشية فيها ترجرج وتفتل يهتز بها المنكبان ويقبل الوجه مرة إلى يمنة ومرة إلى يسرة كما تصنع المرأة إذ تنفض الغربال فيرتج عطفاها على حركته، وتلفت وجهها عن يمين مرة ويسار مرة لتنفخ ما يخالط القمح من التراب ونحوه ـ فكأن قولهم « يغربل » كناية عما وراءها، كما يكنون عن الشيخ الهرم الفانى بقولهم « يعجن » لأنه لضعفه إذا قام عن الأرض اعتمد على جمع كفيه كما يفعل العاجن ، فأقر ابن الرومى الوصف، وقلبه على طريقته من الذم إلى المدح بالتكملة التى زادها عليه .

ثم هذه المشية لا تكون من ضعف ولا خلل فى العصب ، وإنما ينشأ الناشىء عليها تقليداً

ومحاكاة ، وقد رأيناها فى رجال أقوياء ، ولا يقال فيها إن صاحبها يلوح للناظرين كأنه يدور على نفسه ، فما فيها غير رجفان المنكبين وتلفت الوجه ، أما تلك التى يستدير فيها الجسم فهى مشية خاصة بالنساء، يقولون زافت المرأة إذا فعلت ذلك.

وتكلم المؤلف عن عبقرية ابن الرومى، فزعم أنها عبقرية يونانية(١)،وبنى على هذا بناء من الرمل لا يكاد يرفعه فى صفحة إلا انهار فى التى بعدها ، بل جاء هو فى آخر الفصل يقول : «فحسبنا إذن من كلمة العبقرية اليونانية أنها مفهومة بلغة الآداب،وإن لم تكن مفهومة فى لغة الأنساب ... يعنى أن ابن الرومى ذو عبقرية يونانية وإن لم تكن يونانية . . . أما إنه كذلك لأنه من سلالة اليونان، فذلك قول لانجزم به ولا نجزم بنفيه لأنه يستطيع أن يكون كذلك ولو لم يكن من تلك السلالة .... »

نقول إذن فلامعنى لتسميتها عبقرية يونانية وإن كانت واقعة على مواقعها عند اليونان ، بل أحرى بها أن تسمى عبقرية عربية وإن لم يكن لها شبيه عند العرب، مادام ابن الرومى يستطيعها ولو لم يكن رجع إليه شىء من الوراثة اليونانية .

إن كانت كلمة العقاد ثناء على ابن الرومى فلبئس ما أثنى ، لأن الأدب العربى هو الحقيق أن تنسب إليه عبقرية خص بها صاحبها الذى لا يعرف غير العربية وكان بها ذا قدرة « سبق بها الشعراء فى الأمم كافة بغير شك ولا تردد، هى قدرته البالغة على نقل الأشكال الموجودة كما تقع فى الحس والشعور والخيال » صفحة ٢٩٢ . « ويستخدم السخر فى الهجاء والمديح والمطايبة والمعاتبة ، ويعرض لك فى متحفه الكبير تلك الصور الهزلية التى لا مثل لها فى شعر واحد من شعراء العالم كله » صفحة ١٢٩ .

إننا نقف خاشعين عند هذا التحقيق العلمى الدقيق المحيط بشعر شعراء الأمم كافة والعالم كله فى قديمه وحديثه ، ويسرنا أن تكون مصر قد خصت برواية يروى لكل أمة من الأمم كافة شعر جميع شعرائها فى العالم كله ... ونسلم للعقاد أنه اطلع على كل ذلك وحققه ورواه، ولكنا لا نسلم له أنه اطلع على الشعر العربى، وإلا فليأتنا بدواوين: بشار،وابن هرمه،ومنصور، وأشجع ، وابن الضحاك ، والوراق ، وابن الجهم ، وابن بسام ، وعشرات ومئات بعد هؤلاء وقبل هؤلاء ، وهل قرأ شعر محمد بن العزيز الذى نظم قصيدة تربى على أربعمائة بيت فى وصف حاله وتنقله فى الأديان والمذاهب والصناعات ؟ وهل وقع إليه ديوان الواسانى الذى خلف ابن الرومى فى طريقته، وقال فيه الثعالبى: «أعجوبة الزمان ونادرته ، كان فى زمانه كابن الرومى فى أوانه»؟ وهل قرأ ديوان ابن حجاج الذى انفرد بطريقة فى الهجاء والسخر أسقطت ابن الرومى، وعفت على ديوانه وبلغ شعره خمسين الف بيت، وقال فيه الثعالبى :« ديوان شعره أسير فى الآفاق من مثل ... كثيراً ما بيع ديوان شعره بخمسين ديناراً إلى سبعين .. »؟ وهل قرأ شعر ابن بسام الذى كان يقلده ابن الرومى فى الهجاء ويسرق من معانيه وهو معاصره ، وقد هجا الخلفاء والأمراء

(١)هذه الكلمة مسروقة من لغة الادب الاوربى.

والناس جميعاً وأباه وأمه ؟

قبل أن يزعم العقاد تلك المزاعم الفارغة عن شعر شعراء الأمم كافة والعالم كله ، يجب أن يثبت لنا أنه أحاط بالشعر العربى وحده ، وأنه استخرج من ذلك أن ابن الرومى منفرد فيه . أما التهجم بغير علم ، والزعم بغير دليل ، ودعوى الثقة واليقين بلا برهان صريح ، ولا دلالة قاطعة ، فهذا كله ضرب من صناعة الكتابة الصحافية ، لا من صناعة التحقيق التى لو استعرضنا بها الكتاب صفحة صفحة ، ومسئلة مسئلة ، لخرج أكثره تلفيقاً وإغراقاً ، وتزيداً وجراً للكلام على الاقتسار والمكارهة ، كما ترى فى هذه المسئلة التى حشرها حشراً فى صفحة ٣٢٢ ليتباصر بأنه يعرف النحو ، وهو من أجهل الناس به ، إذ قال عن ابن الرومى :

« أما لفظه من حيث هو صحيح أو خطأ ، فللفظ عالم بالنحو ، مطلع على شواهد العربية ولا سيما فى القرآن ... ومن هنا لم يذكر كلمة « أشياء » إلا ممنوعة من الصرف ، وهى مصروفة فى قول القياسيين من النحاة لأنها جمع شىء ، فهى أفعال جمع فعل ، وليست فعلاء مؤنث أفعل ، (كذا كذا ...) التى تمنع من الصرف . وإنما تابع المفسرين فى هذا ، ولم يتابع القياسيين من النحاة ، لأن كلمة « أشياء » وردت فى سورة المائدة ممنوعة من الصرف ... وتعليل المفسرين لذلك : أن « أشياء » اسم جمع كطرفاء ، غير أنه قلبت لامه فجعلت لفعاء ، وقيل أفعلاء حذفت لامه ، جمع لشىء كهين ، أو شىء كصديق فخفف ، وهذه المخالفة للنحاة القياسيين هى كما ترى أدل على العلم منها على الخطأ » .

فما الذى يفهم من هذا الخلط ؟ يفهم أن « أشياء » مصروفة عند القياسيين من النحاة ، وممنوعة من الصرف فى القرآن ، فلذلك عللها المفسرون غير تعليل النحاة (طبعاً) واتبعهم ابن الرومى ، فكان هذا أدل على العلم منه على الخطأ ، أى منع الصرف خطأ فى ناحية ، والصرف خطأ فى ناحية أخرى ، فكأن النحاة القياسيين يخطئون القرآن .

ولكن فى أى كلام وردت « أشياء » مصروفة ؟ ومن هم النحاة الذين يقولون بخطأ منعها من الصرف أو يجيزون صرفها ؟

كل ما فى هذه المسألة أن النحاة رأوا الكلمة ممنوعة من الصرف ، ورأى بعضهم أن القياس كان يقتضى أن تكون مصروفة ، فذهبوا يعللون بعلل مختلفة تسويغاً لمنع الصرف (١) . أما الكلمة فهى هى حيث وقعت ، فلا تثبت لابن الرومى علما ولا جهلا ، وإن أثبتت للعقاد أنه ظفر بمسئلة من مسائل التصريف نقلها ولم يفهم منها شيئاً .

وبعد ، فما أحق ابن الرومى أن يقول فى كتاب العقاد عنه :

وكانت أيكتى ليد اجتناء فعادت بعده ليد احتطاب ...

مصطفى صادق الرافعى

---

(١) استوفى هذه العلل كلها صاحب (تاج العروس) فى مادة (شاء) وبسط الكلام عليها ورجح منها ، فليرجع اليه القارىء ان شاء .